عُثمانُ بنُ مَظْعُون
رَاهِبُ، صَوْمَعَتُهُ الْحَيَاة

إذا أردت أن ترَتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وَفْقَ سَبقْهم الزمنى إلى الإسلام فاعلم إذا بلَغت الرقم «الرابع عشر» أن صاحبه هو «عثمان بن مظعون».

واعلم كذلك، أن ابن مظعون هذا، كان «أوَّلَ» المهاجرين وفاة بالمدينة.. كما كان «أوَّل» المسلمين دَفْنًا بالبقيع...

واعلم أخيرًا، أن هذا الصحابيَّ الجليل الذى تُطالع الآن سيرته كان راهبًا عظيمًا.. لا مِنْ رُهْبان الصوامع، بل من رهبان الحياة..!!

أجَلْ... كانت الحياة بكل جَيَشانها، ومسئولياتها، وفضائلها، هى صومعته..

وكانت رَهْبَانيته عملا دائبًا فى سبيل الحق، وتفانيًا مثابرًا فى سبيل الخير والصلاح...

* * *

عندما كان الإسلام يتسرّب ضوؤه الباكر النَّدِىُّ من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم... ومن كلماته - عليه الصلاة والسلام - التى يلقيها فى بعض الأسماع سرًّا وخُفْيَة...

كان «عثمان بن مظعون». هناك... واحدًا من القِلّةِ التى سَارَعَت إلى الله والتفّت حول رسوله...

ولقد نزل به من الأذى والضرّ، ما كان ينزل يومئذ بالمؤمنين الصابرين الصامدين...

وحين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القلة المؤمنة المضطهدة بالعافية. آمرًا إيَّاها بالهجرة إلى الحبشة. مُؤْثرًا أن يبقى فى مُوَاجهة الأذى وحده، كان «عثمان بن مظعون» أميرَ الفوج الأوّل من المهاجرين، مُصْطحبًا معه ابنه «السائب» موَلِّيًا وجهه شطر بلاد بعيدة عن مكايد عدو الله «أبى جهل». وضَرَاوَة قريش، وهَوْل عذابها...

وكشأن المهاجرين إلى الحبشة فى كلتا الهجرتين... الأولى

والثانية، لم يزدَدْ «عثمان بن مظعون» رضى الله عنه إلا استمساكا بالإسلام. واعتصامًا به...

والحق أن هجرَتَي الحبشة تمثلان ظاهرة فريدة، ومجيدة، فى قضية الإسلام...

فالذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وصدَّقوه، واتّبعوا النور الذى أنزل معه، كانوا قد سئموا الوثنية بكل ضلالاتها وجهالاتها، وكانوا يحملون فِطْرَة سديدة لم تعُدْ تُسِيغُ عبادة أصنام منحوتة من حجارة أو معجونة من صَلصَال...!!

وحين هاجروا إلى الحبشة واجهوا فيها دينًا سائدًا، ومنظمًا... له كنائسه وأخبارُه ورهبانه...

وهو - مهما تكن نظرتهم إليه - بعيد عن الوثنية التى ألفوها فى بلادهم. وعن عبادة الأصنام بشكلها المعروف وطُقوسها التى خلفوها وراء ظهورهم...

ولابد أن رجال الكنيسة فى الحبشة قد بذلوا جهودًا لاستمالة هؤلاء المهاجرين لدينهم، وإقناعهم بالمسيحية دينًا...

ومع هذا كله نرى أولئك المهاجرين يبقون على ولائهم العميق للإسلام ولمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم... مترقبين

فى شوق وقلق، ذلك اليوم القريب الذى يعودون فيه إلى بلادهم الحبيبة، ليعبدوا الله وحده، وليأخذوا مكانهم خلف رسولهم العظيم... فى المسجد أيام السلام... وفى ميدان القتال، إذا اضطرتهم قُوى الشِّرْكِ للقتال..

* * *

فى الحبشة - إذن - عاش المهاجرون، آمنين مطمئنين... وعاش معهم «عثمان بن مظعون» الذى لم ينس فى غربته مكايد ابن عمه «أمية بن خلف»، وما ألحقه به وبغيره من أذى وضُرّ، فراح يتسلى بهجائه ويتوعَّده:

تَرِيشُ نِبَالاً لا يُوَاتيكَ ريشها ... وتبرى نبالاً، ريشها لك أجمعُ
وحاربت أقوامًا كرامًا أعزَّة ... وأهلكْتَ أقوامًا بهم كنت تَمزعُ
ستعلم إن نَابَتْكَ يومًا مُلِمَّةٌ ... وَأسْلَمك الأوباشُ ما كنت تصنع

* * *

وبينما المهاجرون فى دار هجرتهم يعبدون الله ، ويتدارسون ما معهم من القرآن، ويحملون -برغم الغربة - توهج روح منقطع النظير.. إذ الأنباء تواتيهم أن قريشًا أسلمت، وسجدت مع الرسول لله الواحد القهار...

هناك حمل المهاجرون أمتعتهم وطاروا إلى مكة تسبقهم أشواقهم، ويَحْدُوهم حَنينهم...

بَيْدَ أنهم ما كادوا يقتربون من مشارفها حتى تبينوا كذب الخبر الذى بلغهم عن إسلام قريش..

وساعتئذ سُقِط فى أيديهم، ورأوا أنهم قد عَجِلوا.. ولكن أنَّى يذهبون وهذه مكة على مرمى البصر...!!!

وقد سمع مشركو مكة بمقدم الصيد الذى طالما طاردوه ونصبوا شباكهم لاقتناصه... ثم هاهو ذا الآن، تحين فرصته، وتأتى به مقاديره..!!

كان «الجِوَارُ» - يومئذٍ - تقليدًا من تقاليد العرب ذات القداسة والإجلال، فإذا دخل رجل مستضعف فى جوار سيد قرشى، أصبح فى حِمًى منيع لا يُهْدَر له دم، ولا يضطرب منه مأمن...

ولم يكن العائدون سواء فى القدرة على الظفر بجوار..

من أجل ذلك ظفرت بالجوار منهم قلة، كانَ من بين أفرادها «عثمان بن مظعون» الذى دخل فى جوار «الوليد بن المغيرة».

وهكذا دخل مكة آمنًا مطمئنا، ومضى يعبر دروبها، ويشهد ندواتها، لا يُسَام خَسْفًا ولا ضَيْمًا...

* * *

ولكن «ابن مظعون»... الرجل الذى يصقله القرآن ، ويربيه محمد صلى الله عليه وسلم،يتلفت حواليه،فيرى إخوانه المسلمين من الفقراء والمستضعفين، الذين لم يجدوا لهم جوارًا ولا مجيرًا... يراهم والأذى ينوشهم من كل جانب... والبغى يطاردهم فى كل سبيل... بينما هو آمن فى سِرْبه، بعيد من أذى قومه، فيثور روحه الحر. ويجيش وجدانه النبيل، ويتفوق بنفسه على نفسه، ويخرج من داره مصممًا على أن يخلع جوار الوليد، وأن يَنْضُو عن كاهله تلك الحماية التى حرمته لذة تحمل الأذى فى سبيل الله، وشرف الشَّبَهِ بإخوانه المسلمين، طلائع الدنيا المؤمنة، وبشائر العالم الذى ستتفجر جوانبه غدًا إيمانًا ، وتوحيدًا . ونورًا...

ولْنَدعْ «شاهد عيان» يصف لنا ما حدث:

«لما رأى «عثمان بن مظعون» ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غُدُوِّى ورواحى آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابى

وأهل دينى يَلْقَوْن من البلاء والأذى ما لا يُصيبنى ، لنقصٌ كبير فى نفسى..

«فمشى إلى الوليد بن المغيرة. فقال له:

- يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك. وقد رددتُ إليك جوارك..

«فقال له:

- لِمَ يا بن أخى... لعله آذاك أحد من قومى..؟؟

«قال: لا، ولكنى أرضى بجوار الله. ولا أريد أن أستجير بغيره..

«فانطلقْ إلى المسجد فارْدُدْ عَلَىَّ جوَارى علانية، كما أجَرْتنى علانية..

«فانطلقا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان.. قد جاء يرُد على جِوَارى..

قال عثمان: صدق.. ولقد وَجَدْته وفيًّا كريم الجوار، ولكننى أحببتُ ألا أستجيرَ بغير الله..

«ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة فى مجلس من مجالس قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

* أَلَاكلُّ شيء ما خَلَا الله باطل *

«فقال عثمان: صدقت...

قال لبيد:

* وكلُّ نعيم لا مَحَالَةَ زائل *

قال عثمان: كذبت... نعيم الجنة لا يزول..

«فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يُؤْذَى جليسُكُم، فمتى حدث هذا فيكم..؟؟

«فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه فَارَقَ ديننا.. فلا تَجِدَنَّ فى نفسك من قوله..

«فرد عليه «عثمان بن مظعون» حتى شَرِىَ أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فأصابها، والوليد ابن المغيرة قريب،يرى ما يحدث لعثمان،فقال: أما والله يا بن أخى إن كانت عَيْنُك عَمًّا أصابها لَغَنِيَّة ، لقد كنت فى ذِمَّة منيعة..

«فقا ل عثمان: بل والله إن عينى الصحيحة لَفَقِيرَةٌ إلى مثل ما أصاب أختها فى الله... وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس...!!!

«فقال له الوليد: هلم يا بن أخى، إن شئت فعد إلى جوارى...

«قال ابن مظعون: لا...».

وغادر «ابن مظعون» هذا المشهد وعينه تَضِجُّ بالألم، ولكن روحه تتفجر عافية، وصلابة، وبشرًا..

ولقد مضى فى الطريق إلى داره يتغنى بشعره هذا:

فإن تَكُ عينى فى رضا الله نالها ... يَدَامُلْحِدٍ فى الدين ليسَ بمهتدى
فقد عَوَّضَ الرحمنُ منها ثوابه ... وَمَنْ يُرْضِهِ الرحمن ياقوم يَسْعدِ
فإنى وإن قُلْتُم غَوِىٌّ مُضَلَّلٌ ... لأحْيا على دينِ الرسول محمدِ
أُرِيدُ بذاك الله، والحق ديننا ... على رَغْمِ من يبغى علينا وَيَعْتَدِى

* * *

هكذا ضرب «عثمان بن مظعون» مَثَلًا، هولَهُ أهل، وبه جدير...

وهكذا شهدت الحياة إنسانًا شامخًا يُعَطِّر الوجود بموقفه الفَذِّ هذا.. وبكلماته الرائعة الخالدة:

«والله، إنَّ عَيْنِى الصحيحة، لَفقيرةٌ إلى مِثْل ما أصاب

أُخْتَها فى الله.. وإنى لَفى جِوَار مَنْ هُو أعَزُّ منك وَأقْدَر».!!

ولقد ذهب «عثمان» بعد رَدِّ جِوَار الوليد يتلقى من قريش أذاها، وكان بهذا سعيدًا جدَّ سعيد... فقد كان ذلك الأذى بمثابة النار التى تُنْضِج الإيمان وتصهره وتُزَكِّيه..

وهكذا سار مع إخوانه المؤمنين، لا يروعهم زَجْر.. ولا يَصُدُّهم إثخان..!!

* * *

ويُهاجر «عثمان» إلى المدينة، حيث لا يُؤَرِّقُه أبو جهل هناك، ولا أبو لَهَب.. ولا أُمَيَّة، ولا عُتْبة.. ولا شىء من هذه الغِيلان التى طالما أرَّقَتْ ليلهم، وأدْمَتْ نهارهم...

يذهب إلى المدينة مع أولئك الأصحاب العِظام الذين نجحوا بصمودهم وبثباتهم فى امتحان تَناهَتْ عُسْرَتُه ومَشَقَّتُه وَرَهْبته، والذين لم يُهاجروا إلى المدينة ليستريحوا ويَكْسَلُوا.. بل لينطلقوا من بابها الفسيح الرحب إلى كل أقطار الأرض حاملين راية الله، ومُبشرين بكلماته وآياته وهُداه..

وفى دار الهجرة المُنَوَّرَة، يتكَشَّف جوهر «عثمان بن مظعون»

وتستبين حقيقته العظيمة الفريدة، فإذا هو العابد، الزاهد، المتَبَتِّل، الأواب...

وإذا هو الرَّاهِب الجليل ، الذكيُّ الذى لا يأوى إلى صَوْمَعَةٍ يعتزل فيها الحياة...

بل يملأ الحياة بعمله، وبجهاده فى سبيل الله...

أجَلْ...

رَاهِب الليل، فارس النهار، بل رَاهِب الليل والنهار، وفارسُهما معًا...

ولئن كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، لا سيَّما فى تلك الفترة من حياتهم، كانوا جميعًا يحملون رُوح الزهد والتبتُّل ، فإن ابن مظعون كان له فى هذا المجال طابعه الخاص.. إذْ أَمْعَن فى زهده وتفانيه إمعانًا رائعا، أحال حياته كلها فى ليله ونهاره إلى صلاةٍ دائمة مضيئة، وتَسبيحةٍ طويلةٍ عَذْبَة..!!

وما إن ذاق حلاوة الاستغراق فى العبادة حتى هَمَّ بتقطيع كل الأسباب التى تربط الناس بمناعمِ الحياة...

فمضى لا يلبس إلا الملبس الخَشِن، ولا يأكل إلا الطعام الجشِب...

دخل يومًا المسجد، ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه جلوس، وكان يرتدى لباسًا تمزَّق، فرقَّعه بقطعة من فروة.. فَرَق له قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، ودَمِعَت عيون أصحابه، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم:

«كيف أنتم يوم يَغْدُو أحدكُم فى حُلة، ويروح فى أخرى.. وتوضَعُ بين يديه قَصْعة، وتُرْفَعُ أخرى.. وسَتَرْتُم بُيُوتكم كما تُسْتر الكَعبة..؟!»

قال الأصحاب:

«وَدِدْنَا أن ذلك يكون يا رسول الله، فنُصيب الرخاء والعيش»..

فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا:

«إن ذلك لَكَائِن.. وأنتم اليوم خيرٌ منكم يومئذ»..

وكان بديهيًّا ، وابن مظعون يسمع هذا، أن يزداد إقبالا على الشَّظَف وهربًا من النعيم..!!

بل حتى الرَّفَث إلى زوجته نأى عنه وانتهى، لولا أن عَلِمَ الرسول عليه السلام ذلك فناداه وقال له:

«إن لِأَهْلِك عليك حَقًّا»...

وأحبَّه الرسول صلوات الله عليه، حُبًّا عظيمًا...

وحين كانت رُوحه الطاهرة تتهيأ للرحيل ليكون صاحبها أول المهاجرين وفاةً بالمدينة، وأوَّلهم ارتيادًا لطريق الجنة، كان الرسول عليه السلام، هناك إلى جواره..

ولقد أَكَبَّ على جبينه يُقَبِّلُه، ويُعَطِّره بدموعه التى هطَلَتْ من عينيه الوَدُودَتَيْن فضمَّخَتْ وجه «عثمان» الذى بدا ساعة الموت فى أَبْهَى لحظات إشراقه وجلاله..

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم يُوَدِّع صاحبه الحبيب:

«رَحِمكَ الله أبا السَّائب... خَرَجْتَ من الدنيا، وما أَصَبْتَ منها، ولا أصابَتْ منك»...

* * *

ولم يَنْس الرسولُ الودود صاحبه بعد موته، بل كان دائم الذِّكْر له، والثناء عليه...

حتى لقد كانت كلمات وداعه عليه الصلاة والسلام لابنته رُقَيَّة، حين فَاضَتْ رُوحُها:

«الْحَقى بِسَلَفِنَا الخيِّر، عثمان بن مظعون»..!!!